الفصل التاسع

براغ ، ألبانيا ، وضمانة بولندا
وأحداث عام ١٩٣٩

obeikandl.com

obeikandl.com

يقول تشرشل :

في شهر كانون الآخر عام ١٩٣٩ ، سافر فون ريبنتروب إلى وارسو لمواصلة هجومه الدبلوماسي المركز على بولندا ، فابتلاع تشيكوسلوفاكيا يجب أن يتبعه حصر بولندا ، والمرحلة الأولى تقضي بعزلها عن البحر وتأكيد سيادة ألمانيا في دانزيغ ، ومد سلطتها على سواحل البلطيق حتى ميناء ميميل الليتواني ، أما الحكومة البولندية فقد قاومت بشدة هذا الضغط ، بينما كان هتلر يترقب الفرصة المناسبة لمبدأ العمليات العسكرية .

وفي شهر آذار انتشرت الشائعات عن تحركات مريبة تقوم بها الجيوش الألمانية في ألمانيا والنمسا ، خاصة في منطقة فينا سالزبورغ وقد قالت الشائعات أن أربعين فرقة قد أصبحت جاهزة للمعركة ، وفي نفس الوقت كان السلوفاكيون ، بعد أن تأكدوا من أن ألمانيا ستقوم بمعاونتهم ، يخططون لفصل بلادهم عن الجمهورية التشيكوسلوفاكية ، وأحست بولندا بشيء من الارتياح ، بعد أن زال الخطر عنها مؤقتًا ، وأعلن وزير خارجيتها في وارسو أن حكومته تعطف على مطالب وآمال السلوفاكيين .

وفي بريطانيا ساد الشعور بالتفاؤل الضال على الرغم من المحن التي كانت تقاسيها تشيكوسلوفاكيا في ذلك الحين نتيجة للضغط الهائل من ألمانيا ، أما الصحف البريطانية التي سبق وأيدت اتفاقية ميونيخ ، فلم تفقد ثقتها في السياسة التي جرت إليها البلاد ، وقام وزير الداخلية وألقى خطابًا في العاشر من شهر آذار أعرب فيه عن أمله في مشروع خمس سنوات من السلم يؤدي بعد ذلك إلى خلق «العصر الذهبي» ، وكان البحث جاريًا لإنشاء علاقات تجارية مع ألمانيا ، وقامت الصحيفة الأسبوعية الشهيرة «بنش» بنشر صورة كاريكاتورية لجون بول ، وهو يستيقظ من كابوس مرعب ، وفي نفس اليوم الذي نشرت فيه هذه الصورة ، وجه هتلر آخر إنذار إلى الحكومة التشيكية التي أصبحت ضعيفة واهنة بعد أن ضاعت خطوطها الدفاعية المحصنة نتيجة لاتفاقية ميونيخ وهجمت الجيوش الألمانية على العاصمة براغ واحتلتها دون مقاومة ، ولا زلت أذكر أني كنت في غرفة التدخين ، أجلس مع المستر إيدن حين طالعتنا صحف المساء بهذا النبأ الهام ، وقد ذهلنا من هذا العدوان السافر المفاجئ الذي لم نكن نتوقعه ، ولم نصدق أن حكومة جلالته ، بما لديها من أجهزة قوية للاستخبارات لم تعلم من قبل بمثل هذا الهجوم المفاجئ .

وفي اليوم الرابع عشر من آذار أعلن السلوفاكيون استقلالهم ، واجتازت القوات

المجرية التي تؤيدها بولندا ، اجتازت الحدود إلى المناطق الشرقية من تشيكوسلوفاكيا التي سبق وطالبت بها ، ووصل هتلر بعد قليل إلى براغ ليعلن فرض حماية ألمانيا على تشيكوسلوفاكيا ويعلن ضمها إلى الرايخ الألماني .

وكان رد المستر تشمبرلين على هذا العدوان في خطاب ألقاه في مجلس العموم يوم الخامس من شهر آذار حيث قال : «في تمام الساعة السادسة من هذا الصباح تم احتلال القوات الألمانية لبوهيميا، كما أصدرت الحكومة التشيكوسلوفاكية أوامرها بعدم المقاومة .» ثم قال عن الضمانة البريطانية لحدود تشيكوسلوفاكيا : «لقد تبدلت الأوضاع كلية عندما أعلن مجلس الدايت السلوفاكي انفصاله واستقلال سلوفاكيا ، وأدى بالتالي هذا الإعلان إلى نهاية الدولة التي ضمنا حدودها بسبب من الانشقاق الداخلي ، لذلك فإن حكومة جلالته تجد نفسها غير مرتبطة بذلك الالتزام ...» .

وكان من المقرر أن يلقي رئيس الوزراء المستر تشمبرلين خطابًا في برمنغهام بعد يومين ، وكنت أتوقع أن يكون هذا الخطاب متسامحًا ، إلا أني فوجئت بتغير شامل لم أكن أنتظره ، وقد أدرك تشمبرلين الخطأ الذي وقع فيه كما أدرك أنه خدع نفسه ، وفرض هذا الخطأ على الرأي العام البريطاني فبدل موقفه المسالم السابق مديرًا له ظهره ، وقام ليكشف أمام العالم عن حقيقة شخصيته القاسية الصلبة ، قام المستر تشمبرلين ليلقي خطابًا عنيفًا هاجم فيه هتلر بشدة متهمًا إياه بالتنكر لجميع الوعود التي قطعها على نفسه في مؤتمر ميونيخ وذكر جميع التأكيدات التي أكدها هتلر حين قال: «إن هذا هو آخر مطلب إقليمي لنا في أوروبا» وقال رئيس الوزراء :

« لقد كانت غالبية الشعب البريطاني مقتنعة ، بعد مؤتمر ميونيخ ، بوجوب التقيد بسياسة الحفاظ على السلام ، أما الآن فلا يسعني إلا أن أشارك هذا الشعب خيبة أمله المريرة وسخطه الشديد لتحطيم تلك الآمال ، إذ كيف يمكننا جمع هذه النقائض بين تأكيدات هتلر السابقة وأحداث هذا الأسبوع ؟ وكيف سنطمئن إلى أن هذا الهجوم لن يتلوه الهجوم الجديد على دولة صغيرة أخرى ؟ وهل سيكون هجومه هذا كخطوة أولى نحو فرض سيطرته على العالم بالقوة ؟

وفي الثلاثين من شهر آذار أعلن المستر تشمبرلين في البرلمان : بعد أن تأكد له أن خطوة هتلر التالية هي الهجوم على بولندا وابتلاعها ...

«في حال وجود أي اعتداء من شأنه أن يهدد استقلال بولندا، فإن حكومة جلالته ستجد نفسها مضطرة في الحال إلى مساعدة الحكومة البولندية بكل ما في وسعها، وقد أكدت حكومة جلالته ذلك إلى الحكومة البولندية.

« وأود في هذه المناسبة أن أقول، أن حكومة فرنسا قد فوضتني أن أوضح موقفها المطابق لموقفنا من هذه المسألة الهامة ... وقد أبلغت جميع حكومات الدومينيونات بهذا القرار» !!

ولم يكن الوقت يسمح لتبادل التهم بين الأحزاب في المجلس، وأيد جميع الزعماء الضمانة التي قدمتها الحكومة إلى بولندا، وقلت معلقًا على هذا القرار «لن نجد أية وسيلة أخرى سوى أن نعمل هذا» فقد كان هذا العمل ضروري بعد أن وصلنا إلى هذا الحد، ولكن هذه الضمانة تعني حتمًا نشوب حرب عالمية ...

وهكذا نصل الآن في هذه القصة من الأحكام الخاطئة التي ارتكبها رجال أكفاء من ذوي النيات الحسنة، ولاشك، بعد أن وصلنا نتيجة لتلك الأخطاء إلى هذا المأزق، لنضع المسؤولين عن زمام الأمور مهما كانت نياتهم حسنة، يتحملون وزر أعمالهم أمام التاريخ، وبنظرة إلى الوراء سنجد ما سبق وقبلناه أو ما سبق وتخلينا عنه: لقد كانت ألمانيا منهوكة القوى مجردة من السلاح بفضل معاهدة صارمة، وبعد ذلك قامت ألمانيا لتتسلح من جديد وتتحدى تلك المعاهدة، ثم تخاذلنا فتفوقت علينا ألمانيا في ميدان الطيران الحربي، ثم احتلت منطقة الراين بالقوة واحتلت بناء تحصينات خط سيغفريد، ثم إنها أقامت معاهدة محور بينها وبين إيطاليا، ثم انقضت على النمسا وابتلعتها، ثم تخلينا نحن عن تشيكوسلوفاكيا، وساعدنا على تحطيمها حين وقعنا معاهدة ميونيخ وسلمنا بذلك خط دفاعها المحصن إلى الألمان بالإضافة إلى مصانع السلاح في سكودا التي انتقلت بموجب تلك المعاهدة إلى أيدي الألمان ليقوموا بتزويد أنفسهم بالسلاح، ثم تجاهلنا وساطة ومساعي الرئيس روزفلت لإقامة سلام في أوروبا، ثم إهمالنا لرغبة الاتحاد السوفييتي الصادقة في الاشتراك مع دول الغرب لإنقاذ تشيكوسلوفاكيا، كل هذه الأخطاء والتخليات ذهبت هباء منثورًا.

والآن جاءت بريطانيا لتقدم ضمانتها لبولندا، تلك الدولة التي ساعدت على تقطيع أوصال تشيكوسلوفاكيا قبل ستة أشهر فقط، وسنضطر الآن لكي ندافع عنها أن نهاجم ألمانيا التي أصبحت أكثر قوة ومناعة مما كانت عليه عام ١٩٣٨ حين تراجعنا، أما الآن فقد

عقدنا العزم على مجابهة ألمانيا ، لكن هذا القرار قد اتخذناه في أسوأ الظروف ، وعلى أسس غير مقنعة والتي ستؤدي بحياة الملايين من البشر ...

❖ ❖ ❖

ودفع البولنديون ثمن مقاطعة نيشن التي استولوا عليها من تشيكسلوفاكيا ، فعندما استقبل فون رينبتروب سفير بولندا في برلين ، كانت لهجته جافة حادة أكثر من المرات السابقة ، فقد نجم عن احتلال بوهيميا وإنشاء دولة سلوفاكيا ، وصول الجيش الألماني إلى حدود بولندا الجنوبية ، وقد قال له السفير البولوني ، أن رجل الشارع العادي لا يمكنه فهم السبب الذي دعا ألمانيا إلى حماية سلوفاكيا بشكل يعتبر عملاً عدوانيًا موجها ضد بولندا ، كما طلب السفير معلومات عن المحادثات التي جرت بين فون ريبنتروب ووزير خارجية ليتوانيا ، وبالأخص فيما يتعلق بمرفأ ميمل ، ولم يأت الرد على سؤاله هذا إلا بعد يومين حين احتلت ألمانيا هذا المرفأ .

ولم يعد بالإمكان صد الهجوم الألماني على أوروبا الشرقية ، إذ أن المجر قد وقفت إلى جانب ألمانيا ، كما أن بولندا حين تخلت عن تشيكوسلوفاكيا أصبحت غير مستعدة للتعاون مع رومانيا ، كما أنها ورومانيا لا ترضيان بمرور القوات الروسية عبر أراضيها للوقوف في وجه ألمانيا ، وكان محور الموضوع يدور حول التفاهم مع روسيا بالذات !!

وفي السادس والعشرين من شهر آذار ألقى موسوليني خطابًا عنيفًا بين فيه بشدة مطالب إيطاليا من فرنسا بشأن البحر الأبيض المتوسط ، وفي السابع من نيسان نزلت القوات الإيطالية في ألبانيا ولم تلبث أن احتلت البلاد كلها بعد مدة وجيزة ، وهكذا أصبحت ألبانيا نقطة ارتكاز للجيوش الإيطالية للاعتداء على اليونان ، بالإضافة إلى تهديدها ليوغوسلافيا وشل حركتها .

وفي الخامس عشر من نيسان بعث الرئيس روزفلت رسالتين شخصيتين إلى هتلر وموسوليني طلب منهما التعهد بعدم القيام بأي عدوان جديد لمدة عشر سنوات أو خمس وعشرين سنة ... وقد رفض موسوليني أن يقرأ الرسالة تلك ، إلا أنه قال بعد أن قرأها : «إنها نتيجة لمرض شلل الأطفال» ، ولم يكن ليعلم أنه سيعاني هو نفسه فيما بعد من آلام مبرحة أشد من آلام شلل الأطفال.

❖ ❖ ❖

في شهر آذار من السنة نفسها، شاركت في وضع مشروع قرار إلى المجلس نطلب فيه تأليف حكومة جديدة، وقد شاركني في وضع هذا المشروع حوالي ثلاثين نائبًا محافظًا من بينهم المستر أنطوني إيدن، وظهرت حركة قوية تدعو إلى تأليف حكومة جديدة قوية، واستمرت طوال الصيف، وكانت الشعارات تنادي بإدخالنا إلى مثل هذه الحكومة، وشعر السير ستافورد كريبس، الذي كان مستقلاً في موقفه، أحس بقلق شديد من الأخطار التي تهدد الوطن، وقام بزيارتي عدد من الوزراء ودعيت إلى تأليف حكومة «تضم الجميع»، ولم يكن باستطاعتي أن أفعل شيئًا في هذه الحال، إلا أن وزير التجارة، المستر ستانلي، كان متحمسًا لهذه الفكرة، فكتب إلى المستر تشمبرلين عارضًا منصبه الوزاري إذا كان هذا يسهل إعادة تأليف وزارة جديدة وعلى أسس جديدة، وقد اكتفى المستر تشمبرلين باستلام رسالته دون التعليق عليها.

وتبنت الصحف هذه الفكرة على مرور الأيام، وتزعمت الدايلي تلغراف والمانشستر غارديان هذه الحملة وراحت تطالب بوزارة جديدة، وقد دهشت لهذا الحماس في المطالبة بوزارة جديدة، وصرت أرى في الشوارع اللافتات ترتفع وتحمل شعارات «تشرشل يجب أن يعود»، وبدأت التظاهرات السلمية تجوب العاصمة وتتجمع أمام المجلس تطالب باشتراكي بالوزارة، ولم أكن في ذلك الحين على اطلاع بهذه الأساليب من الإثارة، إلا أنه لو طلب مني المشاركة في الحكم لما ترددت في ذلك، وقد شاء الحظ أن يحالفني في هذه الفترة، فسارت الأمور بطريقها الصحيح لتؤدي إلى النتيجة المرتقبة والمخيفة ...

❖ ❖ ❖

obeikandl.com